الراديو والسينما فى خدمة المجتمع

الراديو والسينما بدعتان من بدع العصر الحديث . والسينما يزيد عمرها على الراديو بنحو عشرين سنة . ولكن الراديو على صغر سنه أكثر إنتشارا . وهو يتفشى تفشيا ديمقراطيا فى الأحياء الفقيرة : فى القهوة والبيت والزقاق فى حين أن السينما لاتزال أرستقراطية تتحيز وتتحدد فى مكان خاص يؤمها جمهور معين يؤدى أجورا عالية أحيانا ومتوسطة فى الأغلب لكى ترى ويسمع .

وأثرهاتين البدعتين فى التربية كبير جدا، وسيكون أكبر فى المستقبل حين يخفض ثمنهما و يتقن أداؤهما بل حين يندمجان فى التلفزيون اندماجا قليل التكاليف لايبهظ العائلة التى تقتنى الجهاز سواء فى الثمن أم فى الإدارة . ونحن إلى الآن لا نقدر الأثر العظيم الذى تحدثه السينما فى رجالنا ونسائنا وصبياننا . فإن الرجل الذى يتردد على الدار السينمائية مرة أو مرتين كل أسبوع يجد سلوى قد تغنيه عن الشراب أو عن نوم القيلولة ويجد معارف جديدة تزيد فهمه للحوادث العالمية كما يجد ألوانا أخرى من الحضارة التى تغريه بأزياء جديدة فى أثاث المنزل وفى الملابس اليومية له أو لزوجته ، وفى طراز المبانى ، بل أيضا فى الأخلاق والسلوك ، وكذلك الراديو يؤثر فينا كل يوم بل كل ساعة بما يذيعه علينا من ألحان أو أغان يحملها الهواء إلى آذاننا على الرغم منا فيضرب على أوتار النفس و يكيف لنا مزاجا فنيا له أثره العظيم فى أخلاقنا بل هو يوجهنا بألوان من الفكريات والدعايات .

فنحن فى عصرنا الحديث نتكيف بالراديو والسينما . وتكون لنا أخلاق وأمزجة فنية وتزداد معارفنا وتوجه ثقافتنا من حيث لا نحس مجهودا منا ولا هجوما علينا ، بل يفعل كل ذلك الينا وكأنا أردناه وتتألف لنا من هذه المؤثرات شخصية قد انطبعت فيها آثار ماضية ونشأت فيها آمال مستقبلة وتعين لها سلوك عام . ونحن مع ذلك فى بداية البدعتين أى لما نصل إلى نهايتهما . وكلاهما من المنتجات الكهربائية التى مازلنا نجهل ممكناتها الخطيرة . فإن القوة الكهربائية على الرغم من أنها تقوم لنا بخدمات عظيمة لا تزال فى طفولتها من حيث الاستعمال . وليس اليوم ببعيد حين تغدو هذه القوة الخادم الوحيد فى منازلنا تكنس وتطبخ وتكيف الهواء وتغسل ملابسنا بل وتحلق لحانا . وهى تفعل كل ذلك الآن فى بعض البيوت المترفة .

ولكن فى الترف سيئة ملازمة . فهو ينشأ ارستقراطيا يستأثر به الأغنياء ثم لا يزال ينبسط ويستفيض حتى يعود ديموقراطيا يقتنيه الفقير . وهكذا الشأن فى القوة الكهربائية . فإننا نحن المتوسطين نستطيع أن نخاطب أصدقاءنا الآن عن سبيل التلفون الكهربائى . وأيضا نقتنى الراديو فى بيوتنا . فهل يبعد الزمن الذى يتحقق لنا فيه استخدام القوة الكهربائية فى اقتناء سينما خاصة ؟ بل فى اقتناء تلفزيون يجمع بين الراديو والسينما فضلا عن تنظيف بيوتنا وغسل ملابسنا وطبخ طعامنا وتبريد الهواء وتدفئته بالقوة الكهربائية ؟

وظنى أن هذا الزمن ليس بعيدا . بل ليس بعيدا أن مساقط المياه فى أسوان ستستخدمها استخداما كهربائيا فى إضاءة منازلنا وطبخ طعامنا فى القاهرة . وقد لا تحتاج مع ذلك إلى مد الأسلاك بيننا وبين أسوان.

وقد استطردت إلى شرح بعض الممكنات الكهربائية ، لأن الراديو والسينما كلاهما من محصولات هذه القوة العجيبة . وكلما أزددنا تمكنا من هذه القوة ونفوذا الى أسرارها ازداد الراديو والسينما رقيا حتى ينتهيا إلى الكمال المنشود فى التلفزيون حين يندمج أحدهما فى الآخر فنرى — فى بيوتنا — اللوحة السينمائية ونسمع فى الوقت نفسه أحاديث المتكلمين أو أغانيهم ونرى حركاتهم وإيماءاتهم . ألا ما أجمل وأبهج هذا الأمل ! إننا عندئذ لنشكو قلة الفراغ ، هذا الفراغ الذى نسأم الآن من وفرته ونحاول أن نتخلص منه بساويات بريئة أو أثيمة .

وكلاهما — الراديو والسينما — قد انتقص عند العامة من قيمة القراءة . فان الأمى يستطيع أن يفهم أحاديث الراديو كما يستطيع أن يرى المناظر السينمائية ويتتبعها فى إدراك حسن لمغزاها دون أن يحتاج إلى قراءة ما يكتب لشرحها . ومن هنا قيمة الراديو فى القرية لأنه يكافح الأمية دون حاجة إلى تعليم القراءة والكتابة . فإننا نستطيع أن نعلم الفلاح بل جمهور الأمة من الفقراء الأميين شيئا كثيرا من الثقافة الصحية والزراعية والمدنية اذا نحن عمدنا إلى الطرق المنطقية دون أن نلتزم أسلوبا معينا فى الأداء يعلو على مستوى المستمعين . وقد استطاعت محطة الاذاعة فى القاهرة أن تشترك مع وزارة الشؤون الاجتماعية فى القاء أحاديث اجتماعية إرشادية كما أنها استطاعت أن تلقى دروسا فى اللغات . وهى بالطبع قادرة على التوسع فى هذا العمل بشرط أن تجعل نصب عينيها على الدوام أن المستمع يريد الاستمتاع كما يريد الانتفاع . وفى مقدور هذه المحطة أن تشترك مع الحكومة فى ترقية الأغانى والألحان . فان بعض أغانينا يشبه أن يكون تئاؤبا أو تنهدا منغمين . وللأنغام تأثير فعال بل سحرى فى النفس . فاذا سمعنا أغنية أو لحنا قد عزفا على أوتار التئاؤب أو التنهد فاننا نحس هذا الاحساس النائم الحزين فيتأثر به سلوكنا اليومى بل أخلاقنا العامة فنسلك فى أعمالنا سلوك التراخى والكآبة . ولذلك يجب أن تتعاون محطة الاذاعة والحكومة على ترقية الأغانى والألحان بحيث يبعثان النشاط والمرح بدلا من الكسل والنعاس .

أما الأحاديث فكثيرة ونحن لا ننتفع بها كما يجب . ففى أوربا وأمريكا تنشأ حلقات المستمعين الذين يستمعون لهـذه الأحاديث كل جماعة على حدة . فهنا جماعة الأمهات والآنسات اللاتى يستمعن إلى أحاديث نسوية أو منزلية . وهنا جماعة أخرى يستمعون إلى الأحاديث السياسية أو الأدبية أو العلمية . وكل جماعة تدرس وتنقد وتناقش وتتصل بالمحطة وتطلب الزيادة هنا والتنقيح هناك . والمحطة تنتفع بهـذه الحلقات . وإنى أرجو من المستمعين أن يفكروا فى هذا الموضوع . ومثل هذه الحلقات تتيسر أكثر للمجتمعين فى ناد عام مثل جمعية الشبان المسلمين أو جمعية الشبان المسيحية أو أحد الأندية الرياضية أو أندية الموظفين أو غيرها . وهناك يقعد المجتمعون فى ساعة الحديث حول الجهاز فيستمعون ثم يعلقون ويعقبون بآرائهم واستنتاجاتهم وانتقاداتهم .

وجمهور السينما بالطبع أصغر من جمهور الراديو . ولكن الفرص التعليمية فى السينما أكبر وستكون الفرص أكبر عندما يندمجان . وقد اندمجا بالفعل بالتلفزيون الذى تزدان به بيوت الأغنياء — والأغنياء فقط — فى الأقطار الأوربية والأمريكية . ولذلك لا نستطيع أن ننتظر ظهور السينما البيتية فى مصر الا بعد سنوات نرجو ألا تكون كثيرة .

وعندى أن السينما أعظم المخترعات المدنية التى يمكن أن ينتفع بهـا التعليم . بل لا أكاد أعرف السبب الذى يجعل تعليم الجغرافيا والتاريخ مقصورين على الأساليب القديمـة . فان الفرق عظيم عظم الجبال بين التلميذ الذى يحفظ عن ظهر قلب — كما كنا نحفظ — فى صبانا أن سان فرانسيسكو مثـلا فى إحدى مدن الولايات المتحدة الكبيرة على الشاطئ الاطلنطى وبين التلميذ الذى يراها بسكانها الأمريكيين والمهاجرين الاسـيويين اليها ومبانيها الشواهق وحركة النقل الميكانيكية فى شوارعها مع صورة فاتنة مؤلمة ومشجية للزلزال السـابق فيها . انى أقول إنه فرق يعظم عظم الجبال بين التلميذ القديم وبين التلميذ الحديث الذى ينتفع فى تعلمه للجغرافيا بالسينما . وكذلك التاريخ بل كذلك البيولوجية من نبات أو حيوان . وفى الطبيعة من الأسرار العجيبة والجميلة مايستهوى عقول الصغار . فان حياة الغراب أو الحمامة أو بعض الطيور التى تتزوج فى فنلندا وتبيض فى مصر يمكن أن تعرض على اللوحة عرضا يفتن الصغار ويسحر ألبابهم ويجعلهم أبناء هـذا العالم بحق يعيشون فيه بروح الطالب الذى يطلب النور والمعرفة مدى حياته ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن حياة النبات وقصة التوابل التى نأكلها كل يوم على موائدنا وهى تنمو بعيدة عنا على أشجار ضخمة فى أقطار تبعد عنا بنحو عشرة آلاف كيلو متر .

ثم أية هواية جميلة هذه التى يحبها الصبيان ثم الشبان فى تفهم جهازى الراديو والسينما ، وهل يظن أحد منا أن شابا قد استهوته هذه الهواية يمكن أن يخشى عليه من مفاسد

الخمر أو القمار أو قتل الوقت فى لعب الورق أو الحجر ؟ أليس فى هذه الهواية مايملأ الذهن ويشحن العواطف بقوة كهربائية تستغل العقل والجسم وتغذوهما معا ؟

وقد سبق أن ذكرت كيف يجب أن يستخدم الراديو فى القرية لتعليم الأميين من فلاحينا وإرشادهم الى مافيه صلاح أخلاقهم وصحتهم وزراعتهم .

إن الفراغ يزداد بين جميع شباننا المتعلمين . وهذا الفراغ إذا لم نعلم شباننا كيف يستخدمونه فى استمتاع نافع صاروا عرضة لأن يستخدموه فى استمتاع ضار . والفراغ مثل كل خواء يحتاج الى مايشغله ولا نستطيع أن نطلب من شباننا أن يتركوا التسليات السيئة مالم نقدم لهم التسليات الحسنة . والشاب الذى تعلم الألعاب الرياضية وأغرم بهواتها يحد بجسمه وقوامه كرامة يحافظ عليها بمداومة اللعب . والشاب الذى أغرم بالسينما لانفوته قصة جديدة وهو يلوك أسماء الممثلين كما لو كانوا من المعارف أو الأصدقاء ويقص القصص عن تفاصيل حياتهم . بل كذلك من يحب الأتومبيل . ولعل مما يستغربه البعض أن شرب الخمور قد نقص فى كثير من الأقطار الأوربية الى نصف المقدار الذى كان عليه قبل عشرين سنة ، لأن الجيل الجديد وجد هوايات أو تسليات مثل الألعاب الرياضية والأتومبيل والسينما والراديو تشغل فراغه وتصد عنه السأم الذى كان يحسه أبناء الجيل السابق فيهربون منه الى الخمور .

ومن الممكن أن نرقى بالسينما ونعنى بالراديو حتى نجعلهما يخدمان المجتمع أكثر من خدمتهما الحاضرة ويسدان هذا الفراغ الذى يحسه شبابنا والذى ربما يسقطون فى مهاوى الرذيلة لكى يملأوه بعمل ما .

وخلاصة القول أن ممكنات الرقى السينمائى والراديوئى كبيرة جدا . ولا يسع أمة متمدنة أو تنشد الرقى أن تهملها . فيجب أن نساير العصر ونأخذ فى الانتفاع بهما كلما حانت فرصة . وعندى أن حكومتنا يجب أن تؤسس سينما تهذيبية أو تتفق مع إحدى الشركات على إنشائها فى القاهرة وسائر المدن الكبرى لكى يستنير الجمهور برؤيتها . وهى الآن تملك كثيرا من الأفلام التعليمية فلن يكلفها هذا العمل نفقات كبيرة .

كما أنها يجب أن تقيم فى كل قرية جهازا استقباليا أو جملة أجهزة راديوئية ترفه عن القرويين وتنير أذهانهم .

هذا واجب الحكومة . أما واجب الجمهور فهو زيادة العناية بأحاديث الراديو بايجاد حلقات المستمعين التى تدرس وتنتقد . ومثل هذه الحلقات تستطيع إذا كبر شأنها أن يكون

لما رأى يعتمد عليه فى نشاط محطة الإذاعة ، بل فى حمل الحكومة على الاشتراك فى ترقية أغانيها وألحانها وأحاديثها .

ومحطة الإذاعة فى مصر تمتاز بأنها هيئة شبه حكومية تطلب الربح ولكن فى غير ذلك الشره الذى نراه فى الشركات الامريكية التى تعيش مما تنشره من الاعلانات على الجمهور فى غضون الأحاديث والأغانى والألحان. ولكن الشركات السينمائية هى شركات تجارية بحتة ، وهى لذلك تجعل نصب عينيها التسلية دون الفائدة أو قبل الفائدة . والحكومة يتدخلها هنا وهناك تستطيع أن توجه وترشد وتساعد لكى تجعل الفائدة متكافئة مع التسلية . ولكن الحكومة تحتاج الى مؤازرة الجمهور لها ومعاونته إياها .

باقة من الحكم

المرء-نصب مصائب لا تنقضى حتى يوارى جسمه فى رمسه

فمؤجل يلقى الردى فى أهله ومعجل يلقى الردى فى نفسه

نرجو غدا ، وغدا لحاملة فى الحىّ لا تدرون ما تلد

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه

فاقبل من الدهر ما أتاك به من قر عينا بعيشه نفعه

فياموقدا نارا لغيرك ضوؤها ويا حاطبا فى غير حبلك تحطب